القنبلة

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ فخري شهاب السعيدي

كل ذلك مما غبر عليه الزمان البعيد ، فقد كانت هي يومئذ أنضر وأصغر ، وكان عشيقها « نيقولا بيتروفيتش كولياكو » في زيارتها بدارها في الريف ؛ وكان الجو حاراً مشبعاً بالرطوبة

وكان « كولياكو » قد انتهى من غدائه وشرب زجاجة كاملة من شراب الموانئ الردىء فلم يكن في حالة من صحة الإدراك جيدة ، وكانت السآمة وقلق البال قد استحوذا عليه وعلى صاحبته فقد كانا ينتظران مقدم المساء اللطيف البارد ليخرجا للنزهة

وفجأة دق جرس الباب ، وكان « كولياكو » قد بقي في قميصه ، فقام من مقعده وتساءل (بنظره) عن القادم فأجابته صاحبته وكان اسمها « ياشا » قائلة :

— ربما كان هذا ساعي البريد ، أو بنت إحدى الصديقات

غير أن « كولياكو » لم يبال (ساعي البريد) أو (بنت إحدى الصديقات) المزعومين وإنما تناول (سترته) وذهب إلى الغرفة المجاورة بينما كانت « ياشا » ذاهبة لفتح الباب

وما كان أشد دهشتها حين لم تجد الطارق ساعي البريد ولا بنت إحدى الصديقات ، بل كانت سيدة جميلة شابة عليها لباس أنيق من طراز قديم ، وكان منظرها ينم عن طيبة نفس وحسن أخلاق . كانت القادمة شاحبة الوجه ، وأنفاسها ثقيلة كمن نزل من عدة طوابق عالية ، وقد ابتدرتها « ياشا » قائلة :

— ماذا تريدين ؟

غير أن السيدة لم تحر جواباً بل دخلت المكان ونفضت أثاثه بنظرة فضول ؛ وكان مظهرها ينم عن ألم في نفسها ، وقد مضت عليها فترة أعدت فيها نفسها للكلام ، فجلست ثم سألت أخيراً رافعة عينيها المحمرتين من البكاء قائلة :

— هل هنا زوجي ؟

فأجابتها « ياشا » :

— زوج مَن ؟

وكان قد استولى عليها خوف مباغت بردت له يداها ورجلاها ، ثم كررت سؤالها قائلة في انفعال بيّن :

— زوج مَن ؟

— زوجي أنا « نيقولا بيتروفيتش كولياكو »

— لا أيتها السيدة ، إني ... إني لم أعرف زوجاً !

ثم مضت فترة صمت بينهما كانت السيدة خلالها تجفف ما كان بعينيها من دموع بمنديل كان بيدها وكانت « ياشا » واقفة لا تجسر على الجلوس تنظر إلى الزائرة في ذعر وقلق شديدين ! ثم إن السيدة

سألت « باشا » فى صوت هادئ وقد علت شفتيها بسمة فضول قائلة :

— إذاً فقد ذكرت أن زوجى ليس هنا ؟

— لا أفهم قصدك !

فنظرت السيدة إليها فى احتقار وهزء ، وغمغمت قائلة : « إنك امرأة سوقية لا خلاق لها ، نعم ... نعم إنك لساقطة حقاً ، وإنى لسعيدة إذ أصبك وجهك بهذا الآن ! » فشعرت « باشا » بأنها لم تحسن السلوك قط إزاء هذه السيدة وأنها لا بد أن تكون قد آلمتها بشىء وضيع ارتكبته . تخجلت من خديها المصبوغين بصباغ أحمر ومن أنفها الذى كان يملوه الوشم ، ومن القُصَّة[1] المتموجة مرحاً على جبينها ، وقد رأت أنها لو كانت نحيفة الجسم ، بلا صباغ ومسحوق وقصة لسهل عليها إخفاء كونها امرأة « رديئة » ، ولقابلتها مقابلة الند للند ولجرؤت على الجلوس على كرسى فى جانب المنضدة الآخر ، وقد أعادت السيدة هذا السؤال :

— وأين زوجى ؟ ثم استأنفت قائلة : « على أنه لا بأس من وجوده هنا ، أو من عدم وجوده — سيان — وغاية ما هنالك أنه قد انكشف لديه احتلاس ، وأنهم الآن يبحثون عنه لإلقاء القبض عليه ، وتبعة ذلك كله إنما تقع عليك وحدك ! »

ثم إن السيدة قامت فمشت فى الغرفة وقد اشتد هياجها ، وكانت « باشا » ترقبها فى دهشة واستغراب فما كانت تستطيع أن تفهم شيئاً من كل ذلك . ثم قالت السيدة :

— سيجدونه اليوم وسيقبضون عليه ! وإنى لأعرف مَنْ ذا الذى قاده إلى ذلك كله ، ذلك هو أنت — أيتها السوقية القبيحة ! أنت أيتها المخلوق السافل ! . . . وكانت أمارات وجهها تعبر عما فى نفسها من شعور نحو « باشا » بل كان منظرها يدل على أنها كانت تود أن لو بصقت فى وجهها ، ثم أردفت :

— إنى ضعيفة ، أتسمعين أيتها الفظة ؟ إنى عاجزة لا حيلة لى وأنت أشد منى قوة ؛ غير أن هنالك من سيعنى بأطفالى . إن الله بكل شىء بصير ! إنه عدل وسيجزيك على ما أنزلت من دمى ، وعلى ما حرمتنى من نوم ليال طويلة بما تستحقين ! وسيجىء الوقت الذى فيه تذكرينى . ثم إن السكون العميق خيم تارة أخرى طويلاً ، وكانت السيدة تخطر فى الغرفة بينما كانت « باشا » تطيل فيها النظر غير فاهمة شيئاً ، وكانت تتوقع — فى كل لحظة — حدوث شىء مخوف . هنالك بدأت « باشا » الكلام قائلة :

— إنى لا أعرف شيئاً عن كل هذا أيتها السيدة ! قالت ذلك وأجهشت بالبكاء المر من قلب كسير . فردت عليها السيدة تقول :

— إنك لتكذبين ، إنى لأعرف كل شىء ، لقد عرفتك من أمد بعيد ، وقد جاءنى أنه لم يمض يوم واحد من الشهور الأربعة البارحة لم يقضه زوجى معك !

(١) القصة : خصلة الشعر المقصوصة بشكل خاص تعلو الجبهة وتتدلى على الجبين

— نعم ، وأى شىء فى ذلك ؟ أى شىء تنكرين ؟ إن هنالك جمهرة تجىء إلىّ وتخرج للزيارات معى ، وما كنت التى أجبرهم على المجىء إلىّ وإنما هم يأتون بمحض رغبتهم

— أقول لك إنهم قد اكتشفوا اختلاساً لديه ؛ لقد اختلس من دائرته من أجلك أنت ، من أجل امرأة مثلك فارف ذنبه ! فاصنى إلىّ . ثم إن السيدة قامت — قبل إتمام كلامها — فوقفت أمام « باشا » واستأنفت ما قطعت قائلة :

— لستِ يا هذه من صاحبات المبادئ فإن من دأبك إيذاء غيرك وذلك كل بغيتك التى تريدين ! إلا أنى لا أستطيع أن أصدق أنك امرأة أضعتِ كل شىء حتى ومضات الإنسانية الأخيرة . إن عنده — يا هذه — زوجاً وبنين ! فلو أنهم حكموا عليه بالإبعاد إلى سيبريا فإنى والأطفال سنموت حتماً من الجوع ! حاولى أن تتفهمى هذا ، غير أن هنالك طريقاً ما تزال أمامنا تنقذنا من البؤس والحطة ، فلو أنى اهتديت إلى « تسعمائة روبل » اليوم فإنه لن يحاكم ... تسعمائة فقط !

فسألتها « باشا » فى هدوء :

— تسعمائة روبل فقط ؟ إنى لا أعرف عن هذا المبلغ شيئاً

— إنى لا أستجدى منك تسعمائة روبل ، فليس لديك أنت نقود ، ولا أنا بحاجة إلى نقودك ، وإنما أسأل عن شىء يختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد اعتاد الرجال إعطاء أمثالك من الفتيات حلياً ، فأعيدى إلىّ ما كان أعطاك زوجى

فصرخت « باشا » وقد أدركت قصد السيدة :

— ما أعطانى شيئاً من حلى ، أيتها السيدة !

— فأين هى النقود إذاً ؟ لقد بذّر نقوده ونقودى ونقود آخرين غيرنا ، فاصنى إلىّ ، لقد أفرطت إذ نعتك بكثير مما لا يليق ولكنى أستغفرك . إنه لا شك فى أنك تكرهيننى ، إنى أدرى ، غير أنك إن كنت رحيمة فحاولى أن تقفى موقفى ؛ أتضرع إليك أن تعيدى لى الأشياء !

هنا هزت « باشا » كتفيها وقالت :

— حسن ، سأفعل ما أردت فى سرور ، ولكن هل ترين الله سيعاقبنى إن كانت هذه الحلى هدايا قدمها — هو — لى ؟ فأرجو أن تصدقينى ... إنك على حق ... وأوشكت أن تمضى فى الكلام لولا أنها استدركت وقالت :

— لقد جاءنى مرة بهاتين الحليتين اللتين أعيدهما إليك الآن فى سرور إن رضيت

قالت ذلك وفتحت خزانة ثياب وسلمت إلى ضيفتها سواراً وخاتماً صغيراً فيه فص أحمر . فثارت السيدة ، وقالت وقد تجهم وجهها وظهرت عليه آثار الاستياء :

— ما هذا الذى تعطينى ؟ إنى لا أسألك صدقة ولا إحساناً ، بل أسألك عن أشياء ليست ملك يمينك ، أغريت زوجى — ذلك المخلوق التاعس البائس فسلبته إياها ، أنت التى تعرفين كيف تكون الاستفادة فى مثل هذه الأحوال . لقد كنت يوم الخميس البارح ، يوم رأيتك مع زوجى فى الشارع متحلية بأثمن الخواتم والدبابيس وما أريدك أن تمثلى لمنفعتى دور حمل وديع ! إنى لأسألك آخر مرة : هل ستعيدين إلى تلك الحلى أم لا ؟

فساء كلامها « باشا » فأجابتها قائلة :

— ما أسخفك ! أؤكد لك أن زوجك نيقولا بيترويتش ما أعطاني سوى هذا السوار وهذا الخاتم . وشيء آخر هو الكمك الذي كان يأتيني به !

فاستضحكت السيدة في صوت متهدج وقالت :

— الكمك ؟ إن أطفاله في الدار لا شيء عندهم يطعمونه ، وأنت هنا يولم لك على الكمك ؟ إذاً فأنت مصرة على عدم إعادة الحلي ؟ .

غير أنها لم تتلق من « باشا » جواباً فجلست على كرسي مريح هزاز وأثبتت نظرها في نقطة واحدة وظلت تفكر ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

— ما العمل ؟ إذا لم أستطع الحصول على هذا المبلغ من المال فإنا حينئذ من الهالكين أنا وهو والأطفال معنا ، أأقتل هذه المخلوقة القطة أم ترى أن من الخير أن أركع أمامها ؟ . ثم إن السيدة وضعت المنديل على وجهها وأخذت في الانتحاب ! ثم وجهت خطابها إلى « باشا » قائلة في حسرة :

— أتوسل إليك ، لقد هدمت كياننا ، أتلفت زوجي ، وخربت حياته فأنقذيه ، إني أدري أنك لا تعطفين عليه ، ولكن فكري في صبيته الصغار ما ذنب هؤلاء الأطهار في تحمل الشقاء ؟

فتفكرت « باشا » ، وخيل إليها أن أولئك الصغار الآن على قارعة من قوارع الطرق يتضورون جوعاً وأن أمهم معهم تشاركهم في العويل ! فقالت تسائل السيدة في حنو وضعف ظاهرين :

— وماذا أستطيع أن أعمل يا أيتها السيدة العزيزة ؟ لقد قلت إنني وحش وإني قضيت على نيقولا بيترويتش ، ولكني أقسم لك ، وأشهد الله على أني لم أجن منه مالاً ؟ بل إنه ليس فينا — نحن جماعة القيان — من لها حبيب غني غير « موتجا » وأما نحن الأخريات فإنا نقاسي مرارة الجوع نصف أعمارنا ! إن نيقولا بيترويتش فتى أنيق لطيف المعشر وذلك ما دعاني إلى قبوله صديقاً . إنا قل أن نكون مدققات في اختيارنا الصحاب !

— إني لا أسألك غير تلك الحلي . أعيديها إلي . إني أستصرخك وأضع نفسي أمامك ، وإن شئت فسألقي بنفسي على قدميك ، فأرجوك ... أرجوك »

فصرخت « باشا » رعباً واستنكاراً وشعرت أن هذه السيدة الحسناء التي كانت تتكلم بلهجة البطلة على المسرح على استعداد للانحناء على قدميها بكل ما أوتيت من ملكات الفخر والنبل لتذل نفسها أمامها ، ولتذلها — هي أيضاً — بذلك . ثم إنها قالت للسيدة وهي تجفف دموعها في صوت مبحوح :

— حسن ، سأعطيك الحلي ، وأرجو ألا تظنين أنها من زوجك نيقولا بيترويتش وإنما كنت أخفتها من أخيار آخرين . وفتحت « باشا » الخزانة تارة أخرى وأعطت للسيدة دبوساً ماسياً وبضعة خواتم وعقود قائلة :

— خذي هذا أيضاً ، وهذا ، إنها ليست من زوجك ! خذيها جميعاً واجعلي بها من نفسك غنية من الغنيات — قالت كل ذلك متأثرة بما رأت من محاولة السيدة الانحناء على قدميها ! ثم قالت تستأنف كلامها : « وإذ كنت في مثل هذا اللطف فعليك أن تحتفظي بزوجك خالصاً لنفسك ، وتعملي على ذلك فما أنا التي دعته إليها ، وإنما هو الذي جاء »

فنظرت السيدة من خلال دموعها إلى تلك الحلى المنثورة على المنضدة وقالت: «ليست هذه كل الحلى. إن قيمة كل هذا لا تعدل خمسمائة روبل!» فذهبت «باشا» إلى خزانتها بسرعة ورمت لها بساعة ذهبية، وعلبة سكائر وزرين مما تُزَرّ به الأكمام، وما إلى ذلك من أشياء، ثم قالت وقد تأثر صوتها بقوة عزم ظاهرة: «إني لا أملك غير ما ترين شيئاً وإنك تستطيعين التأكد بنفسك!»

فتحسرت السيدة وجمعت تلك الحلى ووضعتها فى منديلها وخرجت لا تنبس ببنت شفة، بل إنها لم تحن رأسها تحية توديع! وهنالك فُتح الباب الموصل إلى الغرفة المجاورة وظهر نيقولا كولباكو وكان شاحب الوجه، يهز رأسه فى حركة عصبية كأنه قد جرع جرعة من شراب مر المذاق، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه، فابتدرته «باشا» قائلة:

— ما هى تلك الأشياء التى زُعِم أنك قدمت إلىّ؟ وإذا كان يحق لى أن أسأل فمتى كان هذا؟

فأجابها كولباكو هازّاً رأسه:

— أشياء؟ إنما هذا هذيان! يا إلهى! أتراها قد انتحبت أمامك؟ وأذلت نفسها؟

فصرخت «باشا»:

— إنى أسألك عن تلك الهدايا التى يقال إنك قد قدمت إلىّ، ما هى؟

— إلهى! تلك النقية النبيلة الفخور تكاد ترتمى على قدمى هذه المخلوقة؟ إنما جاءت بها إلى هنا أعمالى! أنا الذى أقررت ذلك!

ثم إنه أسند رأسه إلى يديه وأنّ قائلاً:

لا... لن أغتفر لنفسى ذلك، اغربى (أيتها الوحش عن وجهى) قال ذلك ورمى «باشا» بنظرة احتقار بينما كانت يداه المرتجفتان تشيران إليها بالابتعاد عنه

آه. لقد أوشكت أن ترى نفسها عند قدميها، وعند قدمى مَنْ؟ عند قدميك أنتِ؟ ويلاه! آه... يا إلهى!

ثم إنه أسرع فارتدى ثيابه وخرج من الدار متجنباً أن تمس «باشا» يديه!

فلما خرج طرحت «باشا» نفسها فوق كرسى وأخذت تبكى فى صوت رفيع. لقد كانت آسفة لأنها أعطت حليها

ولقد كان منظراً بشعاً كريهاً ذلك الذى شاهدته! إنها قد تذكرت الآن كيف أن أحد التجار كان قد غلبها من ثلاث سنوات لغير ما سبب فأجهشت بالبكاء أكثر من ذى قبل!...

(بغداد) فتحى شهاب الصعيدى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشا